من مذكرات عمر بن أبي ربيعة ..

حديث غد ...

للأستاذ محمود محمد شاكر

(قال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة[1]) : خرجتُ في صفر من سنة أربعين أريدُ المدينة أزورُ فتياناً من أصحابي بها ، وأتحسَّس الأخبارَ أخبار الفتن المشئومة التي توزَّعت قلوب المسلمين ، وأنظر ما فعل بسر بن أبي أرطاة بمُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد بلغنا أنه أحدَث فيها أحداثاً عظاماً .

غادرت مكة يوم غادرتها وهي كالتنُّور المتوقّد ، فقد ذابت عليها الشمس ، واحتدمَ وهَجُها وبقينا نتنفس بين أخشبيها[2] لظًى من فيح جهنم ، حتى يحس المرء كأنّ الدمَ يفورُ فوراناً في عروقه ، وقد خدر النهارُ من حوله فلا ريحٌ ولا روْحٌ ، فلكل نفس لذعة في الخياشيم والصدر تنشف الرِّيق حتى يكادُ اللسان ينشقُّ من فرط جفافه ، وحتى يكاد يظنُّ أنه الجنون . ما أصبرنا يا أهل مكة على صياخيدها ، وما أحبها إلينا على شدة ما نلقى من لأوائها ! بوركتْ أرضاً وتعالى من حرَّمها وتقدَّست أسماؤه .

كان النهارُ حراً ماحقاً منعنا التأويب ، فكان سيرُنا كله إدلاجاً تحت غواشي الليل إلى أن يُسفِرَ الفجر وطرفاً من النهار . ولشدّ ما أعجبني الليل وراعني حتى تمنّيتُ أيامئذ أن الدهر ليل كلُّه ، فقد كنت أسرى تحت سماء زرقاء ملساء صافية كأنّ النجومَ في حافاتها وعلى صفحتها دُرٌّ يتلألأ على بحر غافية وأنا تحت أنفاسها كالشارب الثمل . وكيف تفعل هذه البيداء بنا وبقلوبنا ؟ قيظٌ يسلخُ جلد الحية ويذيبُ دُماغ الضبّ ، لا يلبث أن تنفحنا بعده بنسيم هفاف كأن الليل يتنفس به ليخفف عنا بلاء نهارنا ، ويفوح من بُرُود الليل شذا الأقاحي فيغمر الفضاء كلَّه أحياناً حتى يخيل إلى أن البادية المجدبة قد استحالتْ روضةً تنفث أزهارُها الطيبَ من حيث استقبلتُ ، فأجد لها روحاً على كبدي وراحة فأعبُّ من أنفاسها عباً حتى أقول لقد سَكِرتُ من غير سُكر . ثم ما أندى رويحةَ الفجر على قلوب السارينَ في هذه الهامه السحيقة المتقاذفة ! فإن عبيرَها وبَرْدها والنور المشعشع على أرجائها يجعلك تحسُّ حساً لا يكذب بأنك تحيى في لذاذات لا ينقضي منها أربٌ ولا يستحيل لها مذاقٌ . ولقد حبب إلى الخروجُ إلى البادية كلما وجدتُ في نفسي طائفاً من سآمة أو ملل ، فيا بُعدَ ما بين الحاضرة وجوِّها الكابد الجاثم ليلا ونهاراً ، وبين هذه الرِّحاب المتمادية التي يبثُّها النهارُ لوافحه وحرقه ، ويأتي الليل فيناجيها نجوى خافتةً بما في ضميره العميق المشتمل على أسرار الحياة برِّها وفاجرها ، وتقف النجومُ على أرجاء سمائها مصغيات مشرقات زاهرات كأنما يومِئ بعضُها لبعض فرحاً بما سمعتْ من تلك الأسرار المصونة المكتمة .

***

كلما أوغلنا في البادية وفي قلب الليل ازددتُ فتنةً بليالي الصحراء وتهامُس رمالها وتناجي كواكبها ، وأسمع للَّيل هَنهمةً كأنها أحاديثُ قلوبٍ عاشقة قد تدانى بها السرارُ ، فتمضي الساعات والعيسُ ماضيةٌ بنا فلا نملّ ولا نكلُّ ولا نحسُّ وحدةً ولا مخافةً ، كأنّا قد دخلنا الحرم الآمنَ الذي لا يراع اللائذ به . وجعلتْ نفسي تتجدَّد وتتطهر كأن برد الليل قد غسلها فما تشوبُ نقاءها شائبة .

وبعد ليال أفضتْ بنا المسالك إلى « الرَّبَذَة » التي بها قبر أبي ذرّ الغفاري رضوان الله عليه ، فلم يبقَ بيننا إلى المدينة سوى ثلاثة أميال ، وأدركنا الفجر وإننا لعلى مشارفها ، فقلنا نعوجُ بها فنصلي الفجر ثم نَرحل حتى نبلغ المدينة في نهار يومنا هذا . فلما أنخنا جمالنا وقمنا إلى الصلاة ، سمعت صوتَ قارىء قد تأدّى إلينا من بعيد ، فتلسَّمته حتى تبينتُ صوتاً رَاعداً تقياً كأن الجبالَ والرمالَ والدنيا كلّها تهتزُّ على نبراته القوية المنيفة

(١) كتب عمر هذه الكلمات وهو في السابعة عشرة من عمره ، فقد كان مولده ليلة الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين يوم مقتل عمر بن الخطاب .

(٢) الأخشبان جبلا مكة المطيفان بها ، وهما أبو قبيس والأحمر .

الصادقة ، وكأنه يمضى فى إهاب الليل المهلهل فيفـريه فرياً ويمزقه بِمُدَىً من النور ، وكأنه يسيلُ فى البطحاء كالسَّيل المتقاذفِ فتموج فيه رمالها كأمثالِ الجبالِ نُسفتْ من قراراتها ، وكأنَّ ألفاظهُ هبَّاتُ عاصفة تقضُّ دُرُوعَ الليل فضاً ، وكأنَّ نغماته أنوار مشمشمة تخالطُ هذا كلَّه فتملأ الفجر فجراً من نُورِها ونور ألفاظها ومعانيها . وأول ما تبيَّنتُه حين دنوت منه بحيث أسمع قراءته : « كُنتُمْ خيرَ أمَّةٍ أُخرِجَتْ للناس تأمُرونَ بالمعروفِ وتنهوْنَ عن المنكرِ وتُؤْمنون بالله ، ولو آمَنَ أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يَضرُّوكم إلاَّ أذًى ، وإنْ يُقاتلوكم يُوَلُّوكم الأدبارَ ثم لا ينصرون . ضرِبتْ عليهم الذلة أينما ثُقِفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناسِ ، وباءوا بغضبٍ من الله وضُرِبَتْ عليهمُ المسكنةُ ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلونَ الأنبياء بغير حقٍّ ، ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون » ، إلى آخر الآيات ، فلما أخذ يكبر سمعت التكبير يملأ جنبات الأرضِ كلها متردداً ظاهراً كأن لم يبق فى الدنيا شىء إلا كبر بتكبيره .

فرغ الرجل من صلاته ووضع عمامته وبقى حيثُ هو قليلا ثم قام ، فأضاء لى ذَرْوٌ من نور الفجر الناهد من قبل المشرق ، فإذا رجل فى السبعين من عمره وافر اللحية أبيضها ، أسمر شديد السمرة طوالٌ جُسامٌ فارعٌ كأنه صعدة مستويةٌ ، أصلعُ الرأس شديدُ بريق العينين ، نظر إلينا نظرةً وحيَّى ثم انفتل راجعاً إلى فسطاطٍ مضروب قريب من حيث كان يُصلِّى . رأيتُه وهو يمشى كأنه قائدٌ يحسُّ كأن الجحافلَ من ورائه تمشى على آثره . وبعد قليل جاءنا رجل كأشدِّ من رأيتُ من الناس نفاذَ بَصرَ ، فحيَّانا وقال : من الناس ؟ قلت : عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى . قال : ابنُ العِدْلِ[1] ؟ رحم الله أباك ، فقد شهد معنا المشاهد بعد عام الفتح . قلت : فمن يكون الرجل الذى أوى إلى فسطاطه رحمك الله ؟ قال أوما عرفته ؟ إنه محمد بن مَسلمة الأنصارىّ صاحبُ رسول الله وصاحب أبى بكر وعمر . قلت : فما جاء به ، وقد سمعنا أن رسول الله نهى عن أنْ يرتدَّ المرء أعرابياً بعد الهجرة ، وأنه ذكر ثلاثاً من الكبائر منها « التعرُّبُ بعد الهجرة » ، فيعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً . قال : صدقت يا بُنىَّ ، ولكن لذلك خبرٌ :

كانَ محمد بن مسلمة فيمن ثبت مع رسول الله يومَ أُحُد ، فأعطاهُ رسول الله سيفاً وقال له : « إنه ستكون فتنة وفُرقة واختلافٌ ، فإذا كان ذلك فأتِ بسَيْفك أُحُداً فاضربْ به عُرْضَه حتى تقطعه ، واكسر نبلك واقطع وتَرَك ، واجلس فى بيتك حتى تأتيك منيَّة قاضية أو يد خاطئة ، فإن دَخَل عليك أحدٌ إلى البيت فَقمْ إلى المُخدَع ، فإن دخل عليك المخدع فاجثُ على ركبتيك وقل : بؤ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » . وقد فعل حين كانت هذه الفتن بين علىّ ومعاوية فكسر حدَّ سيفه وقعد فى بيته ، وأطاعَ نبيَّه وعصى الشيطان الذى استزلَّ هذه الناس التى يقتل بعضُها بعضاً . ولقد قضى فى مكانه هذا ثلاث سنواتٍ يدعو ربه أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين التى جعلت تتفانى على دُنْيا فانيةٍ ، وعسى ربُّك يستجيبُ لدعاء هذا الرجل الصالح فتحقن الدماء وتوصَل الأرحامُ ويعزُّ بهم دين الله فى هذه الأرض .

(قال عمر) : فسألتُ الرجل أنْ يستأذن لى على أبى عبد الرحمن محمد بن مسلمة فذهبَ ثم جاء يُومىء إلى أن أقبِل . فدخلت على أبى عبد الرحمن فسطاطه فإذا فيه سيفٌ مُعلَّقٌ على جانبٍ منه ، فلما سلَّمتُ ردَّ التحية وقال : مرحباً بك يا ابن أخى ! ما جاء بك ؟ قلت : زائرٌ إلى مدينة رسول الله يا أبتاه . فدعانى أن أجلس ، فوالله لقد أخذتنى للرجل هيبَةٌ ما وجدتها لأحد ممن لقيت من صحابة رسول الله ، ولا من أمراء المسلمين ، وكانت عيناهُ تَبِيصَّان فى سُدْفَة الفسطاط كأنهما قِنْديلان يلوحانِ فى ظلامٍ بعيدٍ . وجعلتُ أنظر يميناً وشمالا فلا ألبث أن أثبت نظرى على سيفه المعلق ، فلما رأى العجَب فى عينىّ قال : لعلك تقول ، لقد كسر سيفه وهذا السيفُ معلقٌ بحيث أرى ! ثم قام واستنزل السيف واخترطه فإذا هو سيفٌ من خشب .

(١) كانت قريش تلقب عبد الله « العدل » ، لأن قريشاً كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها من ماله سنة فكان وحده عدلا لقريش جميعاً فى ذلك ، وكان تاجراً موسراً .

ثم قال : لقد فعلت ما أمرني به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم واتخذتُ هذا أرْهبُ به الناس .

***

(قال عمرَ بعد حديث طويل) : قلت له : يا أبتاه والله لقد آنستني وأدنيتني وأطلقت لساني فلو سألتك ! قال: سل ما بدا لك يا ابن أخي . قلت : لقد حدّثني عن قتلك كعب بن الأشرف اليهودي ، وعن قتل يهودَ أخاك محموداً رضي الله عنه ، فهلا حدثتني عن إجلائك يهودَ عن جزيرة العرب في زمان عُمَر ؟ فقال :

رحم الله الرجل، فقد كان شديداً في الحق حافظاً للعهد ، ولكن يهودَ قومٌ غُدُرٌ ، أساءوا الجوار وخانوا العهد وتآمروا على المسلمين ، فعزمَ عمرَ على أن يجليهم عن أرض العرب ليقطعَ غدرهم ويحسم مادة النفاق في هذه البقعة المباركة . فأرسَلَ إليَّ وقال : « لقد عهد إليك رسول الله مرات أن تجلى يهود ، فأنا أتبع سنته وأعهد إليك أن تجلي لي يهود عن أرض العرب ، فلا تظلمهم ولا تؤذهم ، ولكن لا تدعْ منهم صغيراً ولا كبيراً ولا طفلا ولا امرأة حتى تستوثق من جلائهم بجموعهم عن أرضنا . ولئن عشت لأُجْلِيَنَّهم عن كل مكانٍ كبَّر فيه المسلمون لله ، فإنهم أهل فسادٍ ونفاقٍ وخَبَث » فخرجتُ إلى طوائف اليهود في خيبر وسقتهم مستقبلاً بهم الشام ، فلما بلغنا غايتنا أقبل عليَّ رجل من ولد الحارث أبي زينب اليهوديّ ثم قال لي : لقد كنت مسترضعاً فينا يا أبا عبد الرحمن ، وكنت أنت وابن الأشرف رضيعي لَبانٍ ، فما لبث أن جاء هذا الدين واتبعتم ذلك النبيّ حتى قتلت أخاكَ ورضيعَك ، وها أنت تخرجُنا من ديارنا وأرضِ أجدادنا ، وترمينا في ديار الغُرْبة ، فهلا كنت تركت كل ذلك لغيرك أيها الرجل ! فقلت له : يا أخا يهودَ ، لئن كنت قتلتُ رضيعي فقد قتل قَوْمُك أخي محمود بن مسلمة غدراً ، وعرضتم لحرم رسول الله بالتشبيب والبذاءة والسَّفَه ، وأردتم أن تغدروا بنبي الله وتدلوا عليه صخرة لتقتلوه ، أفتظنّ يا أخا يهودَ أننا تاركوكم تعيثون في الأرض فساداً ، وتكفرون النِّعم ، ولا ترعون حُرمة ولا ذِماماً ولا عهداً ، وتتآمرون على المسلمين تحت الليل ، وتعدون عليهم غارِّين آمنين؟ ووالله لقد صبر عليكم عُمَر صبراً طويلاً ، ولو كان حزَّ رقابكم جزاءً بما تصنعون لقلَّ ذلك لكم .

قال ابن الحارث : لشدَّ ما تهضَّمتم علينا أيها الناسُ ، فوالله ليكونن لهذا اليوم الذي أذللتمونا فيه وفضحتمونا وأجليتمونا عن أرضنا وأرض آبائنا يوم مثله يكون لنا عليكم ، فقد جاء في كتبنا أنه سوف يجيء يوم تدخل فيه اليهودُ على أبناء يعرب هؤلاء فتذيقهم بأساً شديداً وعذاباً غليظاً ، حتى ترى اللُّقمة في يد المسلم قد أدناها إلى فيه فإذا على رأسه رجالٌ من أشدَّاء يهود تنقره حتى يدعَها لهم . ولتدخلنَّ نساؤنا على نسائكم حتى لا تبقى امرأة منكم إلا نامت بشرِّ ليلةٍ مما تَلْقى من نسائنا ، ولنسوقنكم كما سقتمونا حتى نجليكم عن ديار آبائكم وأجدادكم ولنفعلن الأفاعيل حتى تكون لنا الكلمة العليا ونحن يومئذ أحق بها . ووالله ما نصبرَ على ما آذيتمونا إلا انتظاراً لما يكون غداً كما قال لنا أنبياؤنا . وكأني أنظر إلى غدٍ ، فأرى وجوه الأحباب من بني إسرائيل قد سقطت عليكم من كل فج كأنهم جرادٌ منتشرٌ نأكل بابكم وطريّكم ، ولا تدعُ لكم موطيء قدم إلا كان تحته مِثْل جَمْر النار . وإنكم لتقولون إن الله قد ضرب علينا الذلة والمسكنة ، فوالله لئن صدقتمُ اليوم إذْ أمر أمرُكمْ ، لتعرفنّ غداً أننا شعب الله الذي لا يرضى له الله بالذلة والمسكنة ، ولقد كنَّا ملوك الأرض فدالت دولتنا كما دالت من قبلها دول ، ولكن الله بالغُ أمره يوم تدولون كما دُلْنا ويعودُ الأمر إلينا ، فنحن قوم أولو بأس شديد ، ونحن أهل الكتاب الأوّل ، ونحن أتباع الحقّ . فإذا جاء ذلك اليوم يا أبا عبد الرحمن فستعلمون أيُّنا أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلا . فوالله لنتخذنَّكم لنا أعواناً على أنفسكم ، ولنضربنّ غاديكم برائحكم ومقبلكم بمدبركم ، ولنوقعنَّ الفتنة بينكم حتى يُصْبِح الرجل منكم مؤمنا ويمسي كافراً ، وليكوننَّ لنا من أنفسكم رجالٌ يُخْربون بيوتهم وبيوت آبائهم وهم عنا راضون ولنا مطيعون !

قال محمد بن مسلمة : فسمعتُ الرجل يقول قولاً كبيراً ، فقلت له : لئن صدقَ أنبياؤكُم فكانَ ذلك ، فما صدقوا إلا